

الزعات الحديثة

في الشعر^(١)

لأستاذ العوصي الوكيل

المدرس بمدرسة الأمير فاروق الابتدائية

حضرات الزملاء والأساتذة الأجلاء

أشكر لحضراتكم تفضلكم بالحضور لسماع هذه المحاضرة ، وأشكر لنادي دار العلوم أن مكنتني من إلقائها ، وأرجو أن أوفق إلى إردافها بمحاضرة أو محاضرات في الشعر الحديث ، فإن الشعر الحديث وهو الذي يجب أن يكون أكثر فهماً ووضوحاً ومعرفة من غيره - مهمل مضيق غير مفهوم الأغراض والنواحي ، يتهمك الناس بذكوره ويهزءون من رجاله جهلاً وسفاهة وقد لقيت المرحوم الأستاذ المرأوي مرة يثمد في تهكم وسخرية :

أنت كوخ معشوشب أزل مقرر الصمت في ظلال السكون
ويعيده ضاحكا ويقول هذا هو شعركم الحديث فقلت : له إن هذا البيت
لصديقنا الشاعر المشمري وهو محرف وصحته :

أنت كوخ معشوشب في رباة مقرر الصمت سمرمدى الخيال
فقال : ما جئت بشيء هذا من ذلك وذلك من هذا . : كله شعر حديث ...

(١) محاضرة القيت في نادي دار العلوم مساء الخميس ٨ من يناير سنة ١٩٤٤.

فأخذت أفهمه رحمه الله أن البيت لا يقرأ وحده ليدرك جماله ، وأن هذا البيت جميل رائع برغم نزعه من قصيدته . وماذا يريد من شاعر يصف إحساسه حين يلقى حبيبته فيقول إنه كإحساس المضى من المشى المجهود من صعود ربة يجد في قتها كوخاً تعاطفت الأعضان والأعشاب عليه ، وقد هدأ من حوله المسكان وألقى القمر عليه أشعة صافية ساطعة ، وسرح خياله في هذا الجمال الذي لا ينتهي مداه .

وقد ضيع الشعر الحديث فريقان من الناس : فريق نصب نفسه لعداوة كل جديد صدى لتقديسه كل قديم من فنون الأدب من غير تمييز ولا فهم ، فكل قديم عنده حسن ، وكل جديد قبيح من غير بحث ولا نظر ، ودون مناقشة أو مراجعة ، وهذا الفريق طبقات ، وأشدها غلوا من يهمل النظر في الشعر بعد القرن الثالث ، كأن الاستشهاد هو الذي يعني هؤلاء المخالفين ، ومنهم وهم أكثر تساهلاً من سابقهم من يوقف الشعر ويمتته بموت شوقي وحافظ ، كأنما الحياة بشتى مناظرها وشتى اتجاهاتها وشتى موجبات الشعر فيها قدماءت بموت هذين الشعارين .

وفريق حسب نفسه على الشعر الحديث ، وظن أن الشعر الحديث هو اللفظ البراق والرقش الجذاب ، والكلمة الراقصة والعبارة المرتعشة والخيال الذي تحاول أن تجده من هنا فيفر من هناك ، وإلا غراب الذي لا تعرفه النفس الإنسانية ولا تدركه طبيعة الإنسان الشاعرة .

وقد عمد هؤلاء إلى بضعة وعشرين لفظاً غريباً فسلكوها في الأوزان ، وصيروها مرة على وزن الطويل فكانت قصيدة ، ثم صيروها مرة أخرى على وزن البسيط فكانت قصيدة أخرى ، وهكذا ، وليس هناك شعور ولا إحساس ، وقد سحروا الأذان بحسن رصهم وأمافة أنوابهم ولكنهم لم

يصلوا إلى القلوب؛ لأن أبياتهم جثت هامة لا أرواح فيها . وقد أراد أحد
الظرفاء أن يلخص مذهبهم في الشعر ، فنظم هذه القصيدة على لسان أحدهم وهي
شدة الشبه بينها وبين مذهبهم تكاد تحسب من شعرهم الأصيل قال :

رقص البدر على لحن الصخور يا سماء في جبال من بحور
وثغوراً في نجور من زهور قد حبسنا الجو فيها فانطلق

الموى يذبح أشلاء النعيم والمنى تلتفح أفياء الجحيم
والرؤى تقفز في وجه السديم والرياح البيض تجتاح الغسق

نامت الأمواج في حضن الفلك وارتمى الشيطان في جوف الملك
وانتشى الطاووس من ماء الحلك واستراح الظل في حجر الشفق

وثب الليل على برج الزبد وتدلّى الصبح من جسر الأبد
وارتقينا القاع من غير عمد واستبقنا النور حبوا فاستبق

يا هزيج الوجد في مسرى العصور جف ريق الحب في ثغر الأمور
ولقد كانت - وما كانت - عطور تلز الغيب إذا الغيب نفق

الهيولى في مزامير الأزل تسكب الجزن وللحزن عزل
صعد القلب عليها ووزل وتردى الماء فيها فاحترق
فهذا كلام ، كلام ولا شك ، ومنظوم على بحر الرمل ولكل كلمة معنى
مفهوم ، ولكن هل هناك معنى يفهم من هذه الأبيات ، أو معنى يفهم من كل

يدت على حدة، وهذه الآيات تشبه القصور التي تراها من بعيد فخمة ضخمة، ثم تقرب منها فتجدها مصنوعة من الورق المزركش.

أساء هؤلاء إلى الشعر الحديث أشد الإساءة، وهم يحسبون أنهم من أنصاره، فقد صوروا الشعر الحديث في أذهان الناس كلاماً وعبارات. وليس هو بكلام ولا عبارات، وأذاعوا أنه لباقة لفظية وغلبة لسانية، وما هو بلباقة لفظية ولا غلبة لسانية.

ووقر في أخلاذ الناس بعد ذلك أن الشعر الذي يدق في تصوير الحالات النفسية ويتمق في التفسير « الفنى » لبعض العواطف الإنسانية فلسفة لا شعر، وأن الشعر الحق هو ما كان فيه تهاويل من الألفاظ « وتهاويش » من المعاني إن صح هذا التعبير.

أيها الإخوان الانجلياء:

يتقدم الفكر الإنساني، وترحب النفس بالثقافة، وتدخر في أطوارها تجارب الأجيال، ويدرك الإنسان من أسرار الطبيعة ما كان يجهل، وتنفسح أمامه آماند التفكير والخيال والشعور، وقد خلق الله سبحانه وتعالى الناس متشابهين أقرب التشابه في صورهم وأجسامهم، ولكنهم مختلفون أشد اختلاف وأبعده في نفوسهم وعواطفهم وأحلامهم وأحاسيسهم، فليس الله جل شأنه أوجدنا على قالب واحد وصورة واحدة، وهذا كلام من البداهة بحيث لا يحتاج إلى تدليل.

وتأملوا، قد ننظر جميعنا إلى بستان زاهر نضير، فلا يرى أحدنا منه إلا أنه هاج له ذكرى حبيب لقيه تحت ظلة من أغصانه ثم باعدت بينهما الأيام. وقد لا يثير هذا البستان في نفس أخرى إلا تشاؤماً من الحياة - على بعد ما بين النضارة والتشاؤم - لأنه يرى الزهر ويذكر ذبوله بعد عمر ضرب

المثل بقصره ثم يذكر الموت والفناء

ولا يثير هذا البستان التضير في نفس راء ثالث إلا إحساس الجشع
والمادية، فيود لو ملكه وزرعه قطنا أو قمحا، أو يود لو حفر فيه حفرة فوجد
فيها كنزاً، أو منجماً من مناجم الذهب، ولا يعنيه ما فيه من نضارة أو نماء.
وقد عبرت عن هذا الرأي قديماً فقلت :

ليس بالكون ماتراه عيوتى إنما الكون ما يراه الشعورُ

هذه مقدمة لا بد منها، لكي نستطيع أن نقرر أن الشعر الحديث لا يعترف
بالتقاليد ولا يقهره، لأن الشعر صورة صادقة صحيحة من النفس، وقد ثبت أن
النفوس الإنسانية مختلفة المشاعر والعواطف والأحلام، وقد ثبت أن كل
نفس ترى الكون على صورة خاصة لا يشاركها فيها مشارك، فوجب إذن أن
يكون شعر كل شاعر على نمط من الشعور والتفكير لا يشاركه فيه مشارك، ومن
هنا تعددت الأنماط في الشعر الحديث، وتباينت الاتجاهات، واستقلت
النظرات. فالشاعر سيد قطب شاعر الرموز والظلال والحيرة والتأمل وهذه
سمات لا تفارقه لأنها سمات نفسه الشاعرة. والشاعر مخيمر شاعر تحليل الشعور
وتبسيطه والتغلغل في أعماقه وعرضه في صور تكاد تنطق لغزط ما يضي
عليها مخيمر من حيوية نفسه. ونستطيع بعد كل هذا الكلام الطويل أن
نقرر مطمئنين أن أول نزعة من نزعات الشعر الحديث البعد عن التقليد، لأن
التقليد يعطل جزءاً كبيراً من كينونة الإنسان إن لم يعطلها كلها.

والتقليد بدهاء لا يكون في الألفاظ وإنما يكون في الإحساسات والمهاني،
على أنه قد يقع اتفاق في المعنى أو في الصورة بين شاعرين ثم لا يحسب ذلك
من تقليد أحدهما للآخر مادام كل شاعر منهما ينقل عن نفسه ويخلص في
التعبير عنها، وقريب من هذا أن تعطي رسماً واحداً لرسامين فترسمه أحدهما

على «أرضية» حراء ويرسمه الآخر على «أرضية» خضراء . فيتخذ كل من الرسامين موقعا من نفس ناظره لا يتخذة الرسم الآخر ، ولذلك في الشعر أمثلة كثيرة .

قال الشاعر أحمد نخيمر - وهو أحد شعراء دار العلوم

أنت كالطفل وحيك كسوط وفؤادي مثل خذروف صغير

فاذا ألهمته بالسوط ظلما ، ناح كالجنون في الصدر يدور

وقال شاعر آخر من شعراء دار العلوم :

يارب قلب في يدك قذفته مثل الصبي أطاح بالخذروف

فقد يدور بقوة مجنونة تركته لا يدري صدى لحفيف

فمننا اتحدت الصورة ، وتشابهت أجزاءها ، ولكن اختلفت بين الشعارين

طريقة الإحساس بها والتعبير عنها .

على أن أهم الظواهر التي حدثت في الشعر وحدة القصيدة ، وترابط

أجزائها ترابطا قويا ، ولسنا نعني بالترابط ، تماسك الأبيات بأدوات لفظية ،

ولا نعني كذلك أن تكون القصيدة قصة ، فقد لا تكون القصيدة قصة وقد

تكون أبياتها غير مربوط بعضها ببعض لفظيا وهي مع ذلك متماسكة

وفيها وحدة وانسجام .

وقد أصبح من المضحك عندنا أن يعبر عن هذا البيت أو ذاك بأنه بيت

القصيد أو أن يقال في هذه القصيدة خمس عيون يعنون خمسة أبيات جيدة .

فالقصيد عندنا صورة أو صور تامة مترابطة ، يحل بجمالها أبلغ إخلال أن

تقلب نظام ترتيب الأبيات فيها أو أن تحذف بيتاً من بيوتها ، لأنك حينئذ

تعدو على عنصر حي له قيمته وقوته في حيوية القصيدة ، وكونها قصيدة كاملة ،

تنظم صورة كاملة أو إحساسا كاملا نحو شيء من الأشياء .

وقد فصل الأستاذ العقاد الكلام في هذه النقطة في كتاب الديوان حين تعرض لنقد قصيدة شوقي في رثاء مصطفى كامل باشا، التي يقول في أولها:

المشرقان عليك ينتجان قاصيهما في ماتم والداي

وقد رتبها العقاد ترتيباً آخر وترتيباً ثالثاً فلم ينقص معناها، ثم حذف منها فلم تتغير حكم بضعفها بعد النظر فيما حوته من معاني الرثاء التي تحمل القسط الشائع ولا تقتصر على خطأ خاص بإنسان واحد.

ولاشك أن وحدة القصيدة وانسجام معانيها وإحساساتها تجعل النفس تطرب لسماعها إلى آخرها، فضلاً عما يبدو فيها من الكمال الذي ننشده في كل شيء.

ومن أمثلة القصائد التي تتجلى فيها الوحدة وتبرز فيها الصنورة تامة العناصر والأجزاء قصيدة لسيد قطب عنوانها الشعاع الخابي.

ويحسن النص على أنه نظم هذه القصيدة وهو في منتصف العقد الثالث من عمره لأنها تدل على عبقرية مبكرة - قال:

لاح لي من جانب الأفق شعاع بينما أخبط في داجي الظلام
في صحارى اليأس أسرى في ارتباع حيث تبدو موحشات كالرجم
حيث يسرى الهول فيها واجماً
ويطوف الرعب فيها حائماً
والفناء المحض يبدو جائماً

وترى الأشباح في رأس التلاع كالسعالى أو كأشباح الحمام
فاغرات تنشهى الابتلاع تنشش اللحم وتفرى في العظام

قتلت على الضوء يلوح مثلها تلدع عين الساهر
أو كما تهمس في الأجدات روح أو كمعنى شارد في الخاطر

قد تلفت بقلب مستطار
شفه الذعر وأضناه العثار
طلما رجي تباشير النهار
ثم أزمعت إلى الأفق الصبح أرتجى فيه أمان الحائر
أصعد الرابي وأهوى في السفوح وكأني طيف جن تافر

ثم ماذا؟ ثم قد ساد الحلك جأفة... والقبس الهادي نجبا
ثم أحسست بدقات قلبك لاهثات تتراحي تبعبا
رجفة الخائف أضناه العياء
وهو يعدو لاهثاً عدو الطلاء
قلبا يلحقها غول الغناء

وإذا قلبي خفوق مبتسك ليس يدري لتخلص سيبا
حواله الظلمة في أي سلك حيث ينسى الهاربون الهربا

قلت ماذا؟ قال لي رجعت الصدى إليه ماذا؟ قلت للوهم علاما
قال لي اخشع، أنت في وادي الردى حيث يطوى الضوء طرا والظلاما

هاهنا تنوى الأمانى هاهنا

في مهاوى اليأس في كهف الفيا

كل شيء هالك... حتى أنا

ثم ضاع الصوت يفنى بددا وتلاشى تاركا منه النماما
وإذا بي عديت أسرى مفردا لا أرى شيئا ولا أدري لإماما

وقصيدة للشاعر أحمد مخيمر وقد نظمها وهو في الحادية والعشرين من عمره وعنوانها المعاني المبهمة أو المعاني التي لا يدركها التعبير قال :

كم من معانٍ وكَم أشياء مبهمة تجول في النفس ، لاتعنو لتعبير
حاولت بالرمز في شعري أصورها والرمز ينبيء عن عجز وتقصير
كَانَ خاطر قلبي مهيمه قذف وتلك فيه سراب غير محصور
لاني أحس بها في النفس هاجسة في غامض غير ملوس ومنظور
تعلو وتهبط كالأمواج ضاحكة من قسوة الريح أودفع الأعاصير
وكلمة لمحتنى ناصبا شركا تجنبتة وغابت في دياجير
من أي عالم سحر عانقت خلدي وغادرتني في شك وتفكير
لو أنها ذات لون كنت أرسما لكن مجردة كالروح والنور
وقصيدة لشاعر آخر من شعراء دار العلوم عنوانها رجاء إلى الربيع
قال :

أيها الربيع أقبل في قل برياض الوادي أغانـ سجينه
شاقها الشدو فاستمع لنشيد من أناشيدها يحن حنينه
أعمر الدوح بالحياة وهدده هـ ، وأرقص أفئسانه وغصونه
إن في هذه الغصون لمرأ سوف تبدى في لحظة مكنونه
إن فيها الأوراق خضراء حسناء .. أراها بطول حبس مهينة
فمر الدوح يفتق عن مرثية ما ويعدى ظلها المدفونه
أنت حورية وأنت رجاء بل رجاء بل سلوة بل زينة
وقصيدة أخرى لنفس الشاعر عنوانها انسجام الحياة في الربيع وفيها

كعنوانها قوة ودقة وانسجام ، قال :

ما للحياة كأنها جلم بما للنسيم كأنه نغم

ما للرياض كأن طلعتها
والنفس بالذنيا قد ازدحمت
مثل الحروف رمى بها القلم
أغم حياة ما استطعت وخذ
نفس الربيع يطوف طائفه
فالكون كالانعام منسجم

هذه أيها الزملاء الأجلاء أمثلة تعمدت أن تكون كثيرة لتظهر الوحدة والانسجام ، وليظهر الاستقلال والقوة من كل ناحية .

وقد ظن بعض المتأدبين أن الشعر الحديث هو الذي يخلو من المدح والهجاء، ويتجنب ذكر الأطلال والنياق، وهم في هذا وإهمون أشد الوهم؛ لأن هناك من الشعر ما يكون مدحاً أو هجاءً أو ذكر الأطلال والنياق، ومع ذلك فهو معدود من صميم الشعر الحديث، وهناك شعر يصف أحدث المخترعات وليس بينه وبين الشعر وشيخة أو صلة، وقد روى الأستاذ العقاد أن الأستاذ المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب لقيه مرة وقرأ عليه جزءاً من قصيدته العلوية المشهورة في وصف الطيارة، ثم قال له أى للأستاذ العقاد ألسنا نعجبكم الآن بأنصار المذهب الجديد... الخ هذا الخبر الذى أثبتته العقاد في كتابه شعراء مصر فى الجيل الماضى وبيئاتهم .

والمهم فى هذا الخبر أن المرحوم الشيخ عبد المطلب يحسب أن ذكر الطيارة أو وصف الطيارة فى القصيدة كاف لجعلها من الشعر الحديث. ويجب على الشعراء على رأيه هذا أن يتربصوا على أبواب المصانع ويسبقوا دقاتها وسجلاتها فى إثبات أسماء المخترعات الحديثة وأوصافها .

ولو تصورنا الآن إنساناً يحيا فى الصحراء حياة العربى الأول، ويختلط بالناقة اختلاطه بها، وترتبط معيشته بها ارتباطاً قوياً كذلك الارتباط القديم،

فإن ذلك الإنسان يكون شاعراً حديثاً لو أنه وصف المصيف والمربع وذكر الناقة وشتى خطواتها، وحداها بنغمت الحب والأنس والمودة، وعاش بشعره بين الناقة والصحراء والخيمة... ويكون مقلداً ناظماً لو ذكر القطار والسيارة والطيارة ووصفها وحداها، لأن المطلوب من الشاعر أن يعبر لنا بصدق عن أجوائه وأكوانه، وأن يتقل لنا إحساسات نفسه وهجسات فؤاده.

أما المدح والهجاء فهما كبقية الموضوعات الصالحة لقول الشاعر، فالمدح يكون شاعراً حديثاً لو أنه نقل عن نفسه وصدق في النقل عنها، أما شعر المدح الكاذب المفرض، فليس شعراً وقد شبه الأستاذ سيد قطب شعراء المدح الكاذب بمخدم الفنادق ما يفرغون من توديع نزيل حتى يشجذوا ألسنتهم وأفتدتهم لاستقبال نزيل جديد والمحرك لهذا كله الطمع فيما يسمونه (البقشيش)

وشعر الهجاء — أليس ضرباً من الشعر يقابل المدح؟، وإذا أنت أجزت لنفسك أن تمدح المحسن أليس من العدل أن تجيز لها هجاء المنسى...؟

إذا استشارك الحسن فدحته وأطربته فلماذا لاتهجوا القبيح إذا استشارك؟ شعارنا في الشعر الحديث: انقل عن نفسك بصدق، وأحسن التعبير، وقل بعد ذلك ماتشاء مدحاً أو هجاء أو وصفاً أو غزلاً...

أما ذم الهجاء من الناحية الخلقية، فهذا شيء لا ينقص قيمته من الناحية الفنية ولا بن الرومي — وهو شاعر حديث. وإن عاش في القرون الأولى — قصائد عظيمة في الهجاء لا يطعن في قيمتها من الناحية الفنية كثرة الفحش وشدة السب فيها ولولا شهرة أكثرها وذبوعه لروينا منها هنا.

وقد امتاز الشعر الحديث بخلوه من البديع المتكلف السخيف، فالشاعر

الحديث لا يعتمد إلى شيء منه ، وإن طبيعته لتفر منه كما يفر السليم من المجدوم :
لأن البديع من جناس وتورية واستخدام وغيرها عمل يدوي أو هو قريب
من العمل اليدوي لا عمل للنفس ولا للشعور فيه ، وأنت إذا قرأت هذا
البيت لأحد الشعراء في رثاء وليده الوحيد :

قولوا له - أي للذي يسأل عن شعره -

ذهبت قواه بعد ما سكن التراب وليده وحببه

يورى بالبحترى وأبي تمام

عرفت أن الشاعر يلهو عن الحزن والتفجع ببعض الوثب على الجبل

والعب بالبيضة والحجر .

أو لو قرأت قوله في رثاء ابنه هذا أيضا :

أبكيته حولاً وأورتني ضعفاً ، فلا حول ولا قوة ..

لضحكت ، ولم تبك على ذلك الابن الوحيد الحبيب ؛ الذي فقده ذلك

الإنسان الناضب الشعور ، الجامد الإحساس .

إلى هنا اتبيننا من عرضنا السريع لبعض النزعات الحديثة في الشعر وكل

نزعة منها في حاجة إلى الحديث الطويل

ولا ترك هذا المكان من غير أن نشكركم مرة أخرى ونشكر لنادي دارالعلوم

فضله وحرصه على نشر الثقافة الحديثة .

المعرضى الوكيل